المبحث الثاني

تهافت المادية (الماركسية)

obeikandl.com

obeikandl.com

لا شك أن إيمان الماركسية بالمادة وحدها جعلها تقف من الإيمان بالغيب (الميتافيزيقيا)[١] موقف العداء المطلق. فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خرافة وعلى ذلك يكون الدين خدعة بل هو «أفيون الشعوب» وكذلك الفكر والشعور ما هو إلا مادة، ولا يحسبن أحد أننا نقول ذلك استجابة لعاطفة دينية تجيش في الصدر بل إن المادية ذاتها هي التي تقرره وتؤكده.

لقد قالت في البيان الشيوعي: «الدستور والأخلاق والدين خدعة برجوازية تتستر وراءها البرجوازية من أجل مطامعها» وتقول أيضًا: «ليس الشعور أو الفكر سوى مادة في أعلى درجات تنظيمها الذي يتمثل في مخ الإنسان الذي يعكس الواقع المادي، فالفكر أو العقل أو الشعور إذن هو حصيلة تطور بعيدة المدى».

وأود أن أناقش هذين القولين مناقشة موضوعية تاركًا الحكم للماركسية أو عليها للقارئ.

أما أن الدين خدعة في نظر الماركسية فهذه فرية يدحضها علم الاجتماع حيث يقرر:

(١) معنى ميتافيزيقيا(*Metaphysic*): أي ما وراء الطبيعة.

أن الدين ظاهرة اجتماعية تشترك فيها سائر المجتمعات مهما كانت درجة تطورها من الناحية الاجتماعية والحضرية، وأن غريزة التدين كامنة بصفة عامة في طبيعة النفس البشرية، فإذا كان علم الاجتماع ضرورة للإنسان فإن الدين ضرورة قصوى له حتى يعيش حياة هانئة مطمئنة، وليس هناك دليل واحد على أن غريزة التدين تختلف عن نشأة الإنسان.

يقول معجم «لاروس» للقرن العشرين:

«إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية.. وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

ويقول «هنري برجسون»:

«لقد وجدت وتوجد مجموعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد جماعة قط بغير ديانة».

ويقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك:

«لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ومدن بلا مدارس ومدن بلا قصور، ولكن لم توجد مدن بلا معابد».

ويقول «بارتيلمي سانت هيلير»:

«هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاء؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الموت؟ ما الحياة؟ ما القانون الذي يقود عقولنا أثناء عبورنا في هذه الحياة؟ أي مستقبل ينتظرنا بعدها؟ ما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وقد وضع لها حلولا جيدة أو رديئة مقبولة أو سخيفة ثابتة أو متحولة».

ذلك ما قرره علم الاجتماع بشأن غريزة التدين وأصالتها في النفس البشرية بعد

طول عناء ودقيق بحث. فهل جاء بغير ما قرره القرآن الكريم في هذا الشأن حيث يقول الحق جل وعلا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

أما الغيب فماذا قال العلم بشأنه؟ ذلك العلم الذي يتمسح به الماركسيون الماديون في مسمياتهم مثل «فلسفة علمية» (أي مادية علمية)، «اشتراكية علمية» إلى آخر هذه المسميات التي يسودون بها صفحاتهم ولا نرى لها في دنيا الواقع دليلًا.. ألم يخبرنا العلم أن حجم الشمس يبلغ كذا وكذا ضعف حجم الأرض على الرغم من أننا نراها بالعين المجردة في حجم قرص صغير..

بل إن المجموعة الشمسية ما هي إلا واحدة من ملايين المجموعات التي لها أجزاء وتوابع وتختلف في حركاتها ولكن كل في فلك يسبحون، يخبرنا العلم بكل ذلك فنصدقه ولا نكذبه ونسلم به ولا نعرف كنهه ومن الذي قام بتجربة حسية مباشرة ليتأكد من صحة ذلك؟

فإذا تجاوزنا أكبر العوامل في نظر العلم واتجهنا إلى أصغرها في نظره أيضًا وهو الذرة رأينا من أمره عجبًا.. ألم يخبرنا العلم بالأمس أن الذرة لا تنقسم وأنها لا تفقد خصائصها تحت كل الظروف الطبيعية والكيمائية ثم تراجع -في خجل- عن هذه المقالة وقال: إن الذرة مكونة من نواة تدور من حولها الكترونات ذات شحنة سالبة كما تدور المجموعات الشمسية حول الشمس وأن نواة الذرة كانت إلى عهد قريب ذات قوة إيجابية فحسب فأصبحت بدورها من نوعين من الكهرباء موجب وسالب وثبت أنه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائها وأن القوة الهائلة التي تنتج عن هذا التحطيم يمكن أن تكون شقاء على العالم والعلم والعلماء.. وأن هذه القوة تسمى «طاقة» أي قوة مجردة فمن أين جاءت هذه الطاقة؟ لا بد لها من مصدر غير الهيكل المادي.

وهكذا يؤمن العلم بأن في الوجود قوى لا تدركها الحواس المجردة أو المجهزة بأدق الآلات.. وكأن العلم بذلك يخدم الدين ويضع يده في يده مناديًا الناس (أن آمنوا فإن ما

لا تبصرون أضعاف أضعاف ما تبصرون). وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء جزء من الآية ٨٥).

أما أن التفكير والشعور مادة فتلك فرية أخرى أجهزت عليها الحقائق العلمية وأثبتت بطلانها عن طريق الأجهزة الحديثة التي أكدت عدم حدوث تغيير في المخ مهما يكن التفكير عميقًا.

يقول الفيلسوف الفرنسي (برجسون) في كتابه الطاقة الروحية -ذلك الفيلسوف الذي راح يلاحظ المرضى بأمراض الذاكرة والكلام:

«يتفق حيث يكون الفساد الدماغي خطيرًا وحيث يكون المرضى بأمراض الذاكرة اللفظية مصابة إصابة بليغة أحيانًا أن ترجع فجأة هذه الذاكرة التي ظهر أنها فقدت فجأة وذلك على أثر تنبيه قوي بعض الشيء كانفعال مثلًا فهل كان يمكن ذلك لو أن الذاكرة موضوعة في المادة الدماغية التي فسدت أو تلفت».

ثم جاء التطور الجراحي من بعد برجسون فزادت الحقيقة وضوحًا على وضوح. فقد أجريت عمليات جراحية لبعض المرضى فإذا هم بعد هذا الاستئصال الجراحي يذكرون ما لم يكونوا يذكرون ويفكرون أحسن مما كانوا يفكرون.. فلو كانت خلايا المخ هي مخزن الذكريات لوجب أن تنقص الذاكرة بمقدار ما نقص من المادة المخية لا أن تزيد، ولو كان الفكر تفاعلات كيماوية لوجب أن ينقص بإنقاص المادة المتفاعلة لا أن يقوى.

واستمع إلى ما يقوله «الكسيس كاريل» في كتابه القيم «الإنسان ذلك المجهول» يقول:

«ما هو الفكر؟ ذلك الكائن العجيب الذي يعيش في أعماقنا دون أن يستهلك أي قدر قابل للقياس من النشاط الكيميائي. هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة؟ ألا يمكن أن يكون هو منظم الكون وأنه بالرغم من تجاهل الأطباء له أهم من الضوء»؟

ثم يستطرد ذلك العالم متسائلًا:

«هل هو نتاج الخلايا العقلية كما ينتج البنكرياس مادة «الأنسولين» وكما يفرز الكبد عصارة «الصفراء»؟ وهل يحتوي على نشاط من نوع آخر يختلف عن ذلك الذي يدرسه الأطباء ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخي؟ أم يجب اعتباره كائنا غير مادي يوجد خارج الفراغ والزمن، خارج أبعاد العالم الكوني ويدخل في مخنا بطريقة مجهولة لنا».

وهكذا تتهاوى مادية التفكير أمام سلطان العلم الذي يبهر الملحدين قبل المؤمنين.. صدق الله العظيم القائل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهكذا كما تلوي الماركسية أعناق البشر حتى يؤمنوا بها تلوي أعناق مختلف العلوم حتى تقف إلى جوارها ولكن هيهات.. هيهات!!

obeikandl.com